دفاع عن التصوف

للاستاذ محمد على الطعمى
واعظ مركز نجع حمادى

الصوفية دعاة الى الله من الطراز الاول ، استجابوا لربهم بالعمل فصفت أرواحهم واطمأنت نفوسهم بذكر الله ، فراحوا ينشرون فى بقاع الأرض عظمة الخالق وجلال المعبود ، فلب الناس نداءهم والتفوا حولهم هاتفين بوحدانية الله . لذلك نرى التصوف مدرسة قائمة بذاتها لها اساتذتها وبرامجها ودروسها ، هذه المدرسة المهذبة استطاعت أن تمهد للاسلام وتدعو اليه بطريقة ايجابية معبرة رغم مالاقته من صعاب وعقبات ففى الهند والمغرب والسودان والصين كان لهؤلاء الأعلام صوت مرفوع وفتح جديد ، ونتيجة صاعدة لا ينكرها الا خور حقود ..

واذا كان العالم الاسلامى تفرغ فى فترة من فترات حياته المأضية للجدل العلمى الذى تحول فيما بعد الى سباب وشتم وعصبية ، نتيجة لتعدد المذاهب والفرق والأهواء ، حتى كانت كل فرقة تتهم الأخرى بالزيغ والزندقة والالحاد طمعا فى ترويج مذهبها وتوطيد أركانها ، فان التصوف لم ينج من غمز ولمز وطعون ، وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل رموا أهله بالخرافات والانحرافات وقدموهم للمجتمع فى طبق غير نظيف ، ومع كل هذه الزوابع ظلت مدرسة التصوف مفتوحة الابواب مرفوعة الرأس محتفظة بمسلكها ورسالتها التى تعددت وتشعبت واكتظت بالتلاميذ والرواد ، وفى الوقت نفسه أفلس الذين حاربوا التصوف وناصبوه العداء ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على اخلاص رجاله الذين اشتغلوا بالتبتل والزهد ومحاسبة الضمير .

ان الذين يجادلون فى التصوف ، ويحاولون رجمه بالطوب سبقتهم عباقرة ونبغاء جادلوه ورموه بالطوب والحجارة ، ثم ارتدوا آسفين يدقون أبواب مدرسته من جديد ليؤذن لهم بالدخول ، ففتحت لهم المدرسة مصراعيها ، وفعلا أصبحوا من تلاميذ الصوفية المخلصين ، وفى بطون التاريخ أوجدت الصوفية الاقناع والدليل .

واظن الجدل العلمى حول التصوف والحقد عليه لا يجدى فتيلا ، فقد أصبح كالنهر تماما يبتلع كل مايلقى فيه من غير أن يؤثر على طهارته شيئا فمن الخير لو ضاع هذا الجدل الممل فى عمل مثمر منتج ينفع الناس .

ان ابن تيمية الذى يعتبر المرجع الوحيد والدعامة الاولى لخصوم التصوف لم يقف عند حد ، فقد جاهد على أن يذم وينقص كل من يقف له فى طريق حتى انه سلق المذاهب المعتدلة ، وتطاول على نبغاء الفكر وأساطير

الشريعة ، الأمر الذى جعل العلماء وغير العلماء يفطنون الى نواياه التى تدعو الى التعصب والشذوذ ، وفيه يقول العلامة الشيخ الوردير ٠٠ وابن تيمية ضال مضل خرق الاجماع ٠٠ فكيف بالله نعتمد على رجل خرق الاجماع وسفه المعايير العلمية وانفرد وحده فى المعركة ليشار اليه بالبنان

لقد غالى أصحاب ابن تيمية فيه وأطلقوا عليه سفينة النجاة وشمس العلوم وصبر الشريعة ، ولو وضعناه بجوار الاستاذ الشعرانى المتصوف لغرقت السفينة وانكسفت الشمس وخفت علوم الحبر ابن تيمية فى الميزان ٠٠ لقد وضع الجنيد سيد هذه الطائفة قواعد التصوف فقال طريقنا مبنية على كتاب الله وسنة رسوله ، وتلك هى المحجة البيضاء التى نبعت من نبى البشرية عليه السلام ، ولزمها الأصحاب والأتباع ، فأى غضاضة منه على رجال التصوف ما دامت الشريعة منهجهم ؟

دخلت مرة المسجد فوجدت رجلين يتحاوران ٠٠ يقول أحدهما لصاحبه ٠٠ صلاتك باطلة لأنها خفيفة جدا ، فجلست بينهما فاختصما الى ، فقلت للمصلى أرنى كيف صليت ؟؟ ففعل ٠٠ فقلت له صلاتك صحيحة وتؤجر أكثر لو أطلتها ، ومن يومها اعتاد الرجل أن يصلى الصلاة المطلوبة شرعا ٠٠ فهبنى رأيت متصوفا يحتاج الى نصيحة فى سلوكه ٠٠ هل معنى ذلك أهاجمه وألعنه لعنا كبير أم أوجه اليه النصيحة وأحثه على التزام الشرع الحنيف ؟؟

اننا فى حاجة ملحة الى حسن العرض الدينى مع المبتدئين وغير المبتدئين فى الصلاة والزكاة وسائر ألوان الطاعات - ويجب أن يكون العرض فى ثياب رقيقة مهذبة بعيدة عن الخشونة والتعسف والسفسطة ليعلم من لايعلم أن دين الله يسر وانه فى طاقة الجميع « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** »

لقد كان الرسول لين الجانب سمح الطبع جميل الأسلوب يعرف مواطن العلل فيعالجها كما ينبغى أن تعالج ، وكانت له ندوات روحية محضة يلتقى فيها مع أصحابه ، ليرغبهم فى تأدية العبادات وحسن المعاملات ٠ ويفهمهم رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وحديث «عكاشة» الصمالى المشهور صورة من الفيض والتجلى والالهام « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ٠

وبعد

فقد اتضح من هذا الموجز البسيط كيف تشابكت الآراء والتحمت الفرق بعضها مع بعض ؟؟ ثم رسبت هذه الآراء فى نفوس اتخذت منها ذريعة للنقد والتجريح فى التصوف وغير التصوف ٠ وهذا افلاس فى الرأى وهروب من الدليل وتمسك بالعمى الكامل ٠

سلام على رجال التصوف الذين تغلبت أرواحهم على أجسادهم فغمروا الدنيا علما وعملا ، وأدبا ونبلا ، سلام عليهم فى كل مكان ٠٠

محمد على الطعمى